

الأمد 2010-12-12

1199 - شعب عريق قديم: قد يخدم النظام، لكنه يدفع الثمن!

تعتة الوفد

بعد السماح: دعونا ابتداء نفترض أنه لم يحدث تزوير بدرجة تفسر هذه النتائج العظيمة جدا جدا!!!

إذن ماذا حدث في بلد يتمتع بهذا النظام الديمقراطي "الوطني" الجديد، وهو يتعامل باستعباط حديث مع شعب قديم عظيم؟ فيخدعه الشعب هكذا بأن يورطه فيما يبدو أنه لا حل له إلا تحلل النظام كله؟

كنت قد كتبت مقالا للنشر هنا الأسبوع الماضي، قبل إعلان نتائج الجولة الأولى، تخيلت فيه النتائج النهائية، بنسب أقرب إلى الواقع، مثلا الوطني: 152 مقعدا بعد انتخابات الإعادة، و الوفد 101 مقعدا، ..إخ ..إخ ...، وتصورت - بهذه النتائج- استحالة التجانس لتشكيل وزارة مسئولة...إخ، لكن يبدو أن ظروف التحرير حالت دون نشر هذا المقال في حينه.. فحمدت الله، فهي فرصة لقراءة أخرى لنتائج الواقع.

اليوم، السبت الموافق 4 ديسمبر صدرت الأهرام الغراء يتمدرها مقال لرئيس مجلس الإدارة بعنوان "المفاجأة الكبرى"، وهو مقال منطقي جيد، يعدد فيه أسباب النجاح الحقيقي للحزب الوطني، ولا ينكر بعض التجاوزات (التي وصلت إلى أنه وصفها: بالمخالفات الفادحة) لكنه يثبت - ودعونا نصدق- أنها نسبة محدودة، بالمقارنة بعدد اللجان الذي جرت فيه الانتخابات بقدر معقول من الانضباط، (1053 - ألف ثلاثة وخمسون- مخالفة فادحة إلى 44000 - أربع وأربعين ألف - موقع انتخابي)، وفي نفس اليوم كتب رئيس تحرير أخبار اليوم مقاله الرئيسي بعنوان "ليست مفاجأة"، وبرغم هذا الاختلاف الواضح في العنوانين إلا أن المقالين اتقفا على أن الحزب الوطني بفضل ذكاء مديري حملته، وفضل إعادة تنظيمه، و"جمال" برنامجه، قد نجح أن يحصل على ثقة الشعب بشهادة أغلب الناخبين؟

ليكن!! (يعنى: بالمصرى: ماشى!!)

مرة أخرى: على فرض أنه لم يحدث تزوير إلا بهذه النسبة

(واحد إلى 44) فإن النتائج كما وصلتني تقول إن هذه الانتخابات لم تعد تمثل أية ظاهرة سياسية تتيح الفرصة للناس فرصة أن يختاروا: من يقود البلاد، ويصحح الاقتصاد، ويرشد التعليم،.. إلخ، فهي لم تعد إلا فرصة متجددة كل عدة سنوات ينتهزها ناس هذا الشعب المطحونين لإحياء الأمل في إمكان الحصول على ما تيسر من مصالح فردية أو موقعية، (تسمى الدائرة الانتخابية)، وأن الناخبين قد حسبوا هذه المرة، من واقع الخبرة السابقة، فأعطوا أصواتهم لمن تصورا أنه أقدر على تحقيق هذه المصالح الفردية، أو الثللية، أو المحلية، المحدودة والعاجلة!.

أين السياسة بالله عليكم في كل هذا؟ أين المصالح الاقتصادية العامة؟ والتخطيط؟ وقبول التحدي القومي؟ والكرامة الوطنية؟ والتصدير؟ والإبداع؟ والتربية والتعليم؟.. باختصار: أين السياسة؟

هكذا بدا لي - بعد أن استبعدت التزوير، أن الناس قد انسحبوا مما يسمى سياسة: إما بالامتناع عن التصويت، وإما بهذه النتائج التي تعلن كيف أنهم ركزوا على تحقيق بعض المصالح المحدودة، لكنهم أبدا لم يتنازلوا عن موقفهم من هذا الحكم وعجزه، ولا عن رفضهم لهذه السياسة، ربما رأوا بوعيمهم التاريخي أن الذي يجري أصبح واقعا مرا فاشلا يحمل مقومات هدمه من داخله، وبالتالي، فلنتركه يكمل الشوط حتى ينهى نفسه بنفسه بعد أن يشبع فشلا لا يحول دونه برنامج براق، ولا خطبة عصماء، ولا وعود وردية، ثم: و"لا نجاح في انتخابات بهذه النسبة التي قد تعجل بنهايته". يبدو أنه - والحال كذلك - لم يبق أمام الناس إلا أن "يسلموا التماسات" مطالبهم الخاصة جدا (يقال عن ذلك بلغة هذه الديمقراطية: "ينتخبوا") إلى "وسطاء" (يسمون: "نوابا") أملين أن يسهلوا لهم مصالحهم الذاتية جدا، المحدودة جدا، أما السياسة والتخطيط لصالح الوطن كله ومستقبله، فيؤجل حاليا لو سمحت، حتى يأذن الله في أمر هؤلاء بما يستحقون!!

دعونا نستمع إلى لسان حال الناس يقول: ما داموا هم متمسكون جدا بها هكذا، فليشربوها حتى النهاية، وليبينوا لنا شطارتهم دورة فدورة وسوف يحين التغيير الحقيقي، وهو قادم لا محالة لشعب لا يموت.

عزيزي القارئ، من حقا أن ترفض هذا التفسير، لكن من واجبي أن أقول لك أنني استلهمته من الوعي الجمعي لئاسنا، مثلا في الأمثال الشعبية، وسوف أورد بعضها فيما يلي:

1- إن فات عليك الغضب اعمله جوده

القياس الانتخاباتي: ما داموا مصممون على أن يستمروا على قلبنا، فترة أخرى، سواء بالراحة أو بالقوة، وما دمنا نعرف النتائج مقدما 100%، فلماذا لا تأتي منا وكأننا فعلناها مختارين؟ هأنذا أحمل هذا الناجح جميلا بأن أنتخبه، ما دام ناجحا ناجحا بصوتى أو بغير صوتى.

2- إن صُبرتم أجرتم وأمر الله نافذ، وإن ماصبرتم كفرتم وأمر الله نافذ

القياس الانتخاباتي: إن انتخبتم الوطني سهّل لكم مصالحكم الخاصة، فهو ناجح ناجح، وإن انتخبت منافسه، فإن الناجح الوطني سوف يعرقلك، ويرفض مطالبك، ويتنكر لحقوقك الشخصية كمواطن فرد، لا أكثر.

وهكذا قال الناخب لنفسه: لقد أصبح نجاح من أكره بمثابة القضاء والقدر، فلأنتخبه، لأنني لو لم أنتخبه، وهو ناجح ناجح، فلن أرى منه، لا أنا، ولا أهلي، ولا دائرتي: غير العين الحمراء، وسوف يقول لي من موقع نجاحه: دور على من ينفك يا كافرا بفضلتي، فحكومة الوطني أقسمت بكل غال أن تعاقب كل من فضل عليها "مثل الأقلية"، "ربيب المعارضة"، "لقيط المظاهرات" فلتدفع الثمن يا ناكرا للجميل، و"أمر الوطني الانجح نافذ" !!

3- "إلى ييجي منه أحسن منه"

القياس الانتخاباتي: "ها هي تسير (آهي ماشية)، صحيح أنه "ليس هو"، وأنه لن يقدم أكثر مما قدم، لكننا لنا مصالحنا الخاصة جدا، والمحددة جدا، وأي مكسب نحصل عليه منه بعد نجاحه، هو خير من لا شيء، حتى لو كان هذا المكسب صادر من لا نثق فيه، ولم يجترم حقوقنا، ولم يتقدم بعموم بلدنا إلى ما نريد، لكن ما نحصل عليه منه بصفة خاصة، هو أحسن منه (ولو مرحليا).

4- إنصح أخوك من الصبح للظهر، إن ما سمعشي، غشه بقية النهار

القياس الانتخاباتي: لقد مارسنا المعارضة المواجهة، والمعارضة الهادئة، والمعارضة المحتجة، والمعارضة الصحفية، واقترحنا عليهم كل ما جال بخاطرنا، وعملنا مظاهرات على ما قسم، وتجمعات كما أمكن، ونصحنا ونصحنا ونصحنا، ولم يسمع لنا أحد، مع أنهم تركونا ننصحهم جدا، بل إن بعضهم، كان يطلب النصيحة، لكن أبدا لم يسمع لنا أحد،

ليكن، فليستمرروا فيما هم فيه، ولينخدعوا بهذه النتائج التي قد توهمهم بأن الشعب، أغلب الشعب، كل الشعب!!! يوافق على ما يفعلون، وأن الدنيا بخير، وأن التعليم تمام التمام، وأن الإبداع يتزعزع، والأمان يستقر... إلخ. إن أصواتنا التي أمجحتهم بهذا القدر في هذا الوقت، هي من قبيل "غشه بقية النهار"، ما دام لم يستمع لنا من الصبح للظهر

ثم إنني قد استبعدت أمثالا أخرى، لأنني وجدتها لا تليق أن أصف بها شعبنا الجميل، وإن كنت لا أستبعد أن بعضها قد تحرك في قاع وعى بعضنا، مثل:

"الإيد اللى ما تقدر تقطعها بوسها"، "البرطيل شيخ كبير"
"إن كان لك عند العويل حاجة قول له يا عم"، "بكره يهل
رجب ونشوف العجب"، "حاكمك غريمك، إن ما طعته يضيملك"،
وأخيراً:

"خلى صاحبك على هواه، لما يجيب ديله على قفاه"

وبعد

لست متمسكا جدا بهذا التأويل،

ففى النهاية نحن مسئولون رضينا أم لم نرض

الشعب هو الذى سوف يدفع الثمن، الآن، أو حتى بعد أن
يتحلل النظام ويطير هؤلاء وأولئك إلى حيث يستعدون، أو حتى:
إلى "حيث أقت رحلها أم قنعم"

فلماذا؟